ديوان جديد من شعر المقاومة

بقلم ابراهيم علاو

الثورة التي تدفن الأموات ... وتنهض

اذا كانت الوطنية تعني حب الوطن والتغني به ، بأشجاره وأغراسه وحقوله ومنازله وناسه والتعلق بهذا كله والدفاع عنه ، اذا كانت تعني الالتزام المصيري بمصلحة الكادحين والفلاحين والمضطهدين ، فان شعراء المقاومة في فلسطين المحتلة وطنيون ، وربما أكثر من كثير منا .

واذا كانت القومية العربية تعني الاحساس العميق بالرابطة العضوية ، ذات الجذور البعيدة ، التي تربط الشعوب العربية وتشدهم بوحدة المعاناة ، والسعي الواعي لتحقيق هذه الرابطة عمليا بوحدة شاملة قائمة على مفهوم تقدمي ، فان شعراءنا هؤلاء قوميون عرب .

واذا كانت الانسانية هي الانفتاح على مشاكل الانسان وقضاياه ، والتنفس مع ثورات فقرائه ومضطهديه وكادحيه ضد القمع والاستغلال ، ومعايشتها والانفعال بها ومن ثم محاولة علاجها ، فشعراؤنا هؤلاء انسانيون وبشكل واسع جدا .

وحسبنا ان نتناول هذا الديوان الجديد للشاعر توفيق زياد لنتلمس هذه الحقيقة ، وليس هذا الديوان وحده ، فالخطوط العامة لهذه المضامين الرئيسية هي خطوط مشتركة عند جميع شعراء المقاومة في فلسطين . اما ان كان هناك تباين او اختلاف ، فهو في التفصيلات الجزئية ، ودرجة الايقاع والشكل الفني ، ومن هنا كان لكل منهم لونه وطابعه .

وديوان « ادفنوا أمواتكم وانهضوا » ، الذي صدر عن دار الجليل للطباعة والنشر في عكا (آب ١٩٦٩) هو ثاني ديوان للشاعر بعد ديوانه « اشد على ايديكم » .

يحتوي الديوان على سبع وعشرين قصيدة ، وطنية واجتماعية وانسانية . وهذه القصائد هي :

ادفنوا امواتكم وانهضوا ، قبل ان يجيئوا ، ثلج على المناطق المحتلة ، امثال ، شيء عابر ، تلفون ، سلمان ، مليون شمس في دمي ، الذي امِلك ، اديناور ، المغني ، تعالوا ، مقتل عواد الامارة ، شباكي وانا ، ماياكوفسكي ، اهون السفمرة ، ضيقوا الحبلة ، نيران المجوس ، اشدق المحال ، على جذع زيتونة ، غاليليو ، جزيت النصر ، كفر قاسم ، رمضان كريم ، رسالة الى سجين ، اغنية زفاف عثمان . »

وقد نظمت هذه القصائد على فترات متباعدة بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٩ الا ان هذا التفاوت الزمني لم يفت في عضويتها في ذهنية الشاعر الثورية ، فكلها من بنات هذه الذهنية التي ازدادت – رغم المحن المتواصلة – عمقا واصالة وصلابة ، وكانها تاخذ من هذه المحن وقودا لاستمرارها متقدة وعنيفة .

وبهذه الذهنية الصلبة العميقة يغني للوطن : آلامه وآماله ، فيصف المجازر الوحشية التي حلت بشعبه والخراب الذي حل بأرضه ، وصفا تجسيديا بصورته الشعرية الموحية وبتدفقه الشعوري الى هناك ، حيث يذبح السلام كل يوم ، وحيث تقف محاكم التفتيش فاغرة الفم امام هذا العنف الوحشي :

« الا هل اتاك حديث الملاحم
وذبح الاناسي ذبح البهائم
وقصة شعب تسمى :
حصاد الجماجم ؟
ومسرحها قرية
اسمها
كفر قاسم
حديث اناق عليه الجميع
فظنوه اضغاث حلم مريع ،

ولكن هذه المجازر لن تشد صمود الشعب واصراره ولن تميت امله ، بل ستزيد هذا الصمود ثباتا وهذا الاصرار عنفا وضراوة وهذا الامل قوة وسطوعا :

« فادفنوا امواتكم
وانتصبوا
فغد – لو طار –
لن يفلت منا ! »

وتتصاعد درجات الصمود عند الشاعر حتى تصل في احدى مراحلها الى الكبرياء فالتحدي .. ولكن بم ؟ بالانتما لهذا الشعب الذبيح تحت مقصلة الاحتلال :

« كبريائي وأنا في قيدهم
اعنف من كل جنون المجرنة
في دمي مليون شمس
تتحدى الظلم المختلفة » .

وحتى يتحقق الامل المواعد بالخلاص ، سيظل يحضر « فصول مأساته وآهاته » ليحاسب المجرمين – فيما بعد – على كل شيء .

« لكي اذكر
سأبقى دائما احضر
جميع فصول مأساتي
من الحبة
الى القبة

على زيتونة في ساحة الدار . »

ولكنه ، سيظل يصرح على الكفاح في سبيل فجره الواعد رغم الجراح :

« انني امشي على جرحي
كي اطلع فجري .

ومن مواقف هذا الصمود تعلقه بأرضه ودفاعه عنها لانه حملها آهاته وآماله وحملته العزم والاصرار .. فهو يعشقها وحبه لها اقوى من كل حب :

« يا ترابا كله تبر
ويا قوت وعاج
حبنا اقوى من الحب واغنى »

وبهذه الذهنية المتفتحة بغد مشرق يقول في قصيدته « اشد من المحال » ومن داخل سجن الدامون ، يثقب بعينيه استار الظلام ليرى الافق المحنى بدماء العائدين امل الاسرى في اسرائيل :

« يا اخوتي ! او لا ترون الافق
كالسلم المزيق
هذي وجوه العائدين
تطل .. من راس الطريق ؟. »

وبهذا الايمان بزوال الطاغوت عن الاراضي المحتلة وبهذا الامل المورق عزما وصلابة ينشد مذكرا الغاصبين بمصيرهم المحتوم :

« وطني .. مهما نسوا
مر عليه الف فاتح
ثم ذابوا
مثلما الثلج يذوب .. !

والشاعر يسخر الامثال الشعبية بصورة فريدة وبرمزية شفافة رائعة ليؤكد هذا الايمان وبعمقه :

« عن جدنا الاول
قد جاء في الامثال
واوى
بلع .. منجل . »

والشاعر يحس احساسا عميقا بعروبته ، ويتخذ هذا الاحساس عنده طابع المشاركة والمعاناة ، فينفتح من خلال قضبان سجنه – الذي لم يستطع ان يقتل فيه هذه القومية المترشة في جذوره – ينفتح على اخبار العالم العربي ويتعامل معها ويشارك فيها روحها ، رغم هذا القيد الذي يغله ، فحين تحدث انتفاضة لبنان ١٩٥٨ يطل من بين القضبان لينفعل مع احداث هذا البلد العربي ويفرح لثورته :

« اتسمعها تزغرد في دمائي
تحيات العروبة للواء
يرف مخضبا بدم الضحايا
على أرز كأعمدة السماء ؟ »

ثم يأخذ في مناجاة لبنان مستعرضا مواقف البطولة في العالم العربي امام الاستعمار الاجنبي .

وفي قصيدة « عثمان » (٣٠ ايار ١٩٦٩) يثبت هذه المشاركة عمليا لمناضل من السودان فر الى موسكو ثم عاد الى بلده ليبني اشتراكيته ، التي كان يحلم بها منذ زمن طويل ، في حضن الثورة الجديدة . ولذا

فهو سعيد من اجله :

« انه الان طليق كفراشة
انه الان يغني
في مكان ما ويبني
فهو انسان عقيدة
يصنع التاريخ والفجر الجديد
انني من اجله :
اليوم .. سعيد ! »

أما عن علاقته بيوميات الناس فحسبك ان تقرأ قصيدة « مقتل عواد الامارة » او قصيدة « رمضان كريم » لتاخذ صورة حية من حياة شعب يتعذب .. كيف يعيش ؟. كيف يسهر ؟ في ليلة عيد ؟

فالحارة في « رمضان كريم » تجمعت في بيت « ابي عبد الرحمن » الكبير الذي يعشش في سقفه « زوج حمام » ويمتلىء « بخوابي » الزيت والزعتر .

النسوة « تفتل » كعك العيد حول « وجاق » عجين . والرجال يشربون « السادة » ويتحدثون عن « الفردوس المسلوب » وعن « السد العالي » و « بلاد المسكوب » و « غنارين » و « بوحريد » و « عنتر » .

ويسمعون الراديو عن الظلم وعن ثورة كوبا ، ويلعبون « لعبة الفناجين » وخلال هذا الجو تذهب امراة الى شيخ دجال لتطلب منه حجابا لابنها الذي « ركبه الشيطان » ، ويمسح الشيخ لحيته :

« وبمكر ودهاء يبتسم
حسنا ، جيئي بالطفل الى البيت
مع بعض البيض وقنينة زيت
مع ديك حمرته في الطابون
وسأعطيك حجاب
يطرد منه الشيطان الملعون »

ووسط هذا الصخب والضجيج :

يغازل محمود من حوله
يختلس النظرات الى عبلة »

ويتحدث وإياها ويناجيها ويعدها بخطبتها من اهلها بعد شهرين .

وفي ركن آخر يجلس رجال يتمنون « مصباح علاء الدين » و « خاتم شبيك لبيك » ليحصلوا بهما على ما يريدون .

أما الاطفال فيهدرون في الساحة يغنون :

« غدا العيد
ونعيد
نذبح واحدة من ابقار ابي
لكن ابي لا يملك ابقار
فلنذبح واحدة من بقر السيد » .

وهنا يختم الشاعر سيمفونيته الرائعة باصرار هذا الشعب على ذبح الظلم ، وينقل الايقاع كله من حياة الناس اليومية التي تبدو عادية الى الثورة : أليست الثورة ، في نهاية المطاف ، « يومية » اخرى من يوميات الناس ؟

« لا واحدة من بقر السيد ، يا أطفال
بل السيد
نفس السيد ..! »

وتتمتم « أم سليم » :

« رمضان كريم
رمضان كريم ..! »

ومن هذه الدراسة المعجلى ن...
باهم مميزات هذا الديوان :
الالتزام والصدق والعضوية .
الالتزام بحبه للارض والتعلق ب...
والدفاع عنها .
والالتزام بشعبه وبكفاحه .
والالتزام بقوميته العربية ومع...
لمشاكل الشعب العربي في كل مكا...
والالتزام بفكره التحرري والد...
له .
والالتزام بانسانيته :

« واعطي نصف عمري
للذي يجعل طفلا باكيا
يضحك .. »

ثم الصدق .. الصدق في الش...
العميق .. والصدق في التعبير ...

من اغ...
اغني...

**(ترينه كونغ سون) الص...
الذي يكاد يكون وحيدا في ار...
فيتنام الشعرية الموحشة...
فمعظم شعراء فيتنام الوجدان...
تخلوا عن كتابة الشعر لتنـ...
القصائد من فوهات البنادق...
تعبر عن الغضب والحزن و...
الشعب الفيتنامي واستقلا...
العنيدة الصلبة . ولكـ...
« سون » تمكن من البقا...
عندما وجد في يوم من ايـ...
فيتنام الدامية عام ١٩٦٦...
مفترق الطريق المؤدي ...
الحياة .**

في ذلك اليوم قصفت قرية بكامل...
عندما قام رجال الدين البوذيون ...
جنرالات سايغون .

في تلك القرية الجريح شاهد سـ...
الخنازير والدجاج تنهش جثث الق...
ضحايا المجزرة من ابناء وطنه . ...
ذلك المشهد بدء استفاقة ...
الاغنيات السياسية . وكان اول ...
له على هذا الدرب ، ديوان « ال...
العجوز والطفل » ، بعد ان كان ...
موسيقار وكاتب اغنيات عاطفية ، ...
الحرب والدمار مجرد كابوس ...
مضجعه .

وتحول الكابوس الى هاجس...
واصبح سون الشاعر المعادي للحر...
يرفض التمييز بين الحرب الـ...
والحرب غير العادلة . وهو يقول ...
« على الجميع المشاركة في العذاب...
والشعور بانهم شخصيا من ضحـ...
هذه الحرب ... فقد حرمت فيتنـ...
روحها منذ عشرين عاما » . وهو ...
شعبيته ، فقد منعت المئات من ا...